الفنان بريشته

مصطفى الحلاج.. ألف وجه للوحة الشهيد

تاريخ النشر: 08/02/2016

د. عمران القيسي

ليس من السهولة أن نكتب عن فنان بمستوى مصطفى الحلاج. ذلك أن هذا الفنان الحفار، المؤلف، والمفكر العميق، شكّل ظاهرة تدرس بالعمق المطلوب حتى الآن، فهو ابن (سلمة) الغزاوية التي ذكرته برائحة الأرض أينما أقام. لهذا شكّل حضوره في الثورة الفلسطينية وفي صلب الحركة الفنية التشكيلية الفلسطينية ثقلاً نوعياً، ما برح أثره حتى الآن واضحاً على واقع الحركة الفنية الفلسطينية.

وجهه ولحيته الرائعة، جسده الممشوق بقي حاضراً في أغلب اللوحات التي رسمها. أو التي حفرها على الخشب أو على أية مادة أخرى، إنه بصمة الحضور الثوري الصابر، وهو الصوت الصارخ في البرية، بل هو حالة التماثل المطلق مع سميه المتصوف الكبير «منصور الحلاج» الذي مات مصلوباً في الرصافة ببغداد حينما قال: «وهذه دولة الأشباح قد ظهرت... فأمدد يمينك كي تحظى بها شفتي».

لكن حلاجنا الذي أبعدته النكبة الأولى إلى مصر، كان أول من عاش في مقابر المقطم. وكان يدرس الفن ويحكي حكايات العفاريت التي تحتل طرقات المقبرة مساء. كان حفاراً بارعاً وقد برزت طاقته المعاندة عام 1964 حين أقام معرضاً للنحت في القاهرة.

كان مصطفى الحلاج وأمين شموط وشفيق رضوان، ثلاثة من الفلسطينيين الدارسين للفن بمصر. وهو الذي قدم من غزة التي نشطت إبداعياً بعد الانسحاب «الإسرائيلي» منها يوم 7 مارس/آذار 1957، لذلك كان منسجماً مع الأصوات المصرية التي انتمت هي الأخرى للهاجس الفلسطيني. فلا غرابة أن يصير الحلاج جزءاً من كيان منظمة التحرير الفلسطينية منذ إعلان قيامها، ثم ينتمي بكل كيانه إلى الثورة الفلسطينية التي أعلنت حركة فتح انطلاقتها.

كان مصطفى الحلاج مدركاً لموقعه المميز في مسيرة الثورة الفلسطينية لذلك لم يفصل يوماً، بين السلوك الثقافي أو الإبداعي لأي فلسطيني وبين قضيته الأساسية التي يرى العالم من خلالها.

رسم الحلاج حكايات تراجيدية، واللوحة عنده أخضعت لقدر هائل من السردية أو الحكاية الفلسطينية الموروثة واغتصاب الوطن الفلسطيني على أيدي العصابات الوافدة من شتى أصقاع الأرض.

كانت اللوحة الحلاجية نصاً يرويه راوٍ، يعلم الأجيال الطالعة بأصل المأساة بل يدلهم، فهو (الحادي) الذي يغني قافلة العائدين رغم أنه (سيزيف) الحامل الأبدي للصخرة. لذلك يرسم نفسه وهو يسير وراء ذلك الثور الأسطوري الذي له قرنان يشبهان الهلال الذي يتوسطه صليب، وقد ركب على ظهره عدد من الأولاد وسار خلفهم الحلاج يحميهم ويحمل العذاب عنهم.

وحين يرسم ذاته فلاحاً يحفر الأرض لكي يشتل فيها غرسته المفضلة نراه لا ينسى قامته الفارعة وهي تحمل رشاشها الذي صار جزءاً من حضورها الكفاحي.

أما المرأة التي تقود فصيلاً من الأطفال وهي تهجم عارية اليدين. فإنها تترك وراءها ذلك الجسد العجوز مربوطاً بحبل وملقى على الأرض. في صورة ذاتية له وهو يحمل سلاحه ويحرس شتلة مزروعة على أرض غزة وقد رسمها عام 1979 تبين ضربة الحبر القوة التأليفية لهذا الرسام القادر على صياغة الجسد - جسده هو بالذات - بإحساس مرهف للغاية. ويرسم ذاته بهيئة صعيدي مصري يتربص على الجبهة، وهنا يكشف مصطفى الحلاج عن قدر هائل من «الأستذة» في (الإقلالية) أي الاختصارية في الضربات المحدة والمعبرة وهي مقدرة قلما توصّل إليها الفنانون العرب المعاصرون.

ويرتفع في لوحة أخرى رسمها بالغواش عن الأرض لكي يلقي خطاباً على الشهداء الشباب، إنه يشير بأصابعه إلى الحقيقة الرائعة التي تجسدها الشهادة.

وإذا كان الديك المؤذّن واحداً من الرموز الأساسية في لوحة الحلاج، فإن النسر المهيمن على الفضاء بقي عند الحلاج رمزاً للقوة والأصالة.

ولكن وجهه الغزاوي المداف بالبذرة السمراء بقي الرمز الحاضر أبداً في كل عمل تقريباً.

في محترفه بدمشق كان منكباً على إنشاء ورسم لوحته الجدارية الطويلة، وفيها يبدأ مثلما يبدأ السطر العربي برسم تأريخ للشعب الفلسطيني، منذ الكنعانيين وقبلهم، ثم يعرج على الحضور المسيحي انطلاقاً من ولادة طفل المهد في بيت لحم، فمنذ تلك اللحظة انطلقت المسيحية لتعمّ العالم. حتى جاء الإسلام ليفتح الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس. ثم ليحررها صلاح الدين بعد ذلك.

ويجيء الغزو الصهيوني فيرسمه الحلاج كزحف لمخلوقات غريبة تبدأ بنهش الجسد وتدمر كل شيء إلى أن ينتقل إلى الثورة الفلسطينية فتبدأ جداريته بطرح مساحاتها التشكيلية الرائعة.

هذه الجدارية التي أنجزها الحلاج وكان ينوي تقديمها لإقامة متحف فلسطيني للفن المعاصر بمصر، صارت فجأة في وسط اللهب الذي أشعل محترفه في عام 2002، فلم يجد بداً من اقتحام النيران لإنقاذ هذه اللوحة الجدارية الكبيرة. كانت النار بدأت تلتهم كل شيء، لذلك لم توفر جسد ووجه الفنان مصطفى الحلاج الذي خرج حاملاً لوحته المشتعلة وسقط أرضاً وهو منهك بالحروق.

مات بعد ساعات من الحريق وتمّ جمع محترفه بكل ما فيه حتى أن الذين حاولوا إحصاء أعماله التي نجت من النار أذهلتهم غزارة الإنتاج

الابداعي لهذا الفنان الفلسطيني.
مصطفى الحلاج لم يغب، ففي كل لوحة من لوحاته سنجد صورته الذاتية إنه البصمة الأبدية على كل مسطح ثوري تصويري، وقد كتب عنه الفنان الياباني الكبير (شوتاكاتو) وهو بالمناسبة يعتبر بيكاسو اليابان اليوم، إذ قال: «حين عرض الحلاج في طوكيو لوحاته أدركنا بأن شعباً لديه مثل هذا الرسام العميق يصعب أن يموت».

omrankaissy@gmail.com